مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65

رت م د: 1112-685x
رت م د إ: 2588-2236

المجلد: 17 / العدد: 01 / جـوان 2024
ص ص: 71 ـ 86

أنطولوجيا الذات في الشعر الجزائري المعاصر

The self-ontology in Contemporary Algerian Poetry

عبد الرحمن شاهـد *

المركـز الجامـعي نـور البشـير
البيـض / الجزائـر
Chahed07@gmail.com

عبد القـادر العشـابي

جامعـة الجيـلالي اليـابس
سيدي بلعبـاس / الجزائـر
Lachabikader22@gmail.com

تاريخ الارسال: 2024/02/22 تاريخ القبول: 2024/05/05 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

أنطولوجيا الذات في الشعر تعود إلى تلك النقلة التي قام بها هيدغر في الفلسفة المعاصرة، حيث استبدل "الكوجيتو الديكارتي-أنا أفكر" بالأنا الأنطولوجية القلقة، وذلك لأن الأنا كمقولة قبلية خالصة تسبق الوجود انتهت، وحلّ محلها القلق، ومن خلال القلق تصل الأنا إلى وضع أنطولوجي يسمح لها بإدراك انفتاح الوجود، وهنا يحلّ "الشّعر" محلّ "المقولات العقلية" في الكشف عن حقيقة الوجود، ففي الشعر، حيث تحاول الذات ابتداع هويتها الخاصة يوجد قلق أيضا، يصاحب الشاعر في عملية بحثه عن الوجود الأصيل للذات، من خلال تحققها النهائي في الموت كنهاية لكل الإمكانيات الوجودية المتاحة لها. وهذا ما نحاول الكشف عنه من خلال مقاربة تأويلية للشعر الجزائري المعاصر.

الكلمـات المفتاحيـة: الأنطولوجيا، الشعر، الوجود، القلق، الموت.

Abstract:

The self-ontology in poetry traces back to that leap made by Heidegger in contemporary philosophy, where he replaced Descartes' "Cogito, ergo sum - I think, therefore I am" with the anxious ontological self. This shift occurred because the self as a pure tribal proposition that precedes existence had come to an end, replaced by anxiety. Through anxiety, the self reaches an ontological state that allows it to perceive the openness of existence. Here, "poetry" replaces "mental propositions" in revealing the truth of existence. In poetry, where the self attempts to invent its own identity, there is also anxiety. The poet accompanies this process in their search for the authentic existence of the self,

culminating in the final realization through death as the end of all existential possibilities. This is what we are attempting to uncover through an interpretative approach to contemporary Algerian poetry.

Keywords: Ontology, poetry, existence, anxiety, death.

مقدمة:

قامت الميتافيزيقا الكلاسيكية على أسس متعالية ربطت الأنطولوجيا بالمطلقات الماهوية واليقينيات الذهنية، ولذلك كان الوجود «لا يحتاج إلى تعريف إلا من حيث أنه مدلول للفظ دون آخر»،[2] وبحثت الأنطولوجيا في الموجود في ذاته مستقلّا عن أحواله وظواهره، أي بما هي علم للموجود بما هو موجود،[3] كما كان يقول أرسطو.

وبطبيعة الحال فنحن لن نتناول أنطولوجيا الذات في الشعر من هذه الزّاوية، بل سننظر لها من منطلق التفكير الوجودي المعاصر، الذي يبرز قيمة الوجود الفردي، بما هو وجود سابق على الماهية، كما كان يقول سارتر، أو بتعبير آخر لهيدغر «ماهية الإنسان هي الوجود الذي يخصه أي الدازين»،[4] وهذا معارض تماما لمفهوم الوجود سابقا، فابن سينا مثلا كان يعتقد أن «وجود الشيء زائد على ماهيته».[5] وبهذا نرى أن الوجودية المعاصرة أنزلت الأنطولوجيا من صرح المتعاليات الماهوية واليقينيات الذهنية إلى أرض الواقع الفردي في تحققاته الذاتية المختلفة.

أولا/ الشعـــر والوجـــود

ربط الوجود بالشعر هو قضية ليست حديثة، إذ يمكننا أن نعود إلى لزوميات أبي العلاء المعري مثلا حيث نقف على الرؤيا الوجودية الأصيلة التي كان يعيشها الشّاعر من خلال قصائده، لكن تلك الرؤيا ظلت بعيدة ومحتجبة عن القراءة الفلسفية العميقة التي يمكن أن تكشف قيمتها، إلى غاية ظهور الفلسفات الحديثة والمعاصرة التي ربطت بين الوجود والشّعر بشكل خاص أو الوجود واللغة بشكل عام، فلم تعد اللغة مجرد وعاء للفكر تتلخص حقيقتها في المطابقة*، بل أصبحت «مهمة اللّغة هي إنارة الوجود، أي التفكير في وجود الإنسان من خلال الإنارة، وهذه الأخيرة هي التي ستمكننا من النظر في ماهية الإنسان»،[6] واللغة تنير الوجود وتكشفه لأن من طبيعة هذا الأخير أن يحتجب عنا. إذ "اللغة هي منزل الوجود" كما

يرى هيدغر. والعالم ينفتح للإنسان من خلال اللغة، العالم يكشف نفسه للإنسان من خلال عمليات مستمرة من الفهم والتفسير. ليس معنى ذلك أن الإنسان يفهم اللغة، بل الأحرى القول إنه يفهم من خلال اللغة. اللغة ليست وسيطا بين العالم والإنسان، ولكنها ظهور العالم وانكشافه بعد أن كان مستترا، إن اللغة هي التجلي الوجودي للعالم.[7]

وإذا كان حضور الوجود في الشعر -كتيمة- قديما، فإن أوّل من بحث حقيقة الوجود فلسفيا في الشعر هو الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر، الذي نظر إلى الشّعر كفضاء لانكشاف الوجود، ذلك أن «مسألة الوجود بعيدة كل البعد عن أي تناول علمي منطقي، ومن هنا سيكون للشعر في معناه العام، الحق في التكلم للإفصاح عن حقيقة الوجود».[8] العلم والمنطق ينطلق من مقولات عقلية سابقة على الوجود، في حين هيدغر وكل الوجوديين قبله وبعده ينطلقون من أسبقية الوجود على الماهية.

إضافة إلى أن هيدغر ينظر إلى الوجود كعطاء، وهذا يتطلب من الإنسان قدرة على الإصغاء لنداء الوجود،[9] لا إلى المقولات العقلية السابقة، المقولات التي سجنت الوجود وحجبته، فبدل الإصغاء لنداء الوجود واصل الفلاسفة-قبل هيدغر-الإصغاء للمقولات الفلسفية حول الوجود، ولهذا يعدّ ما قام به هيدغر انقلابا في تاريخ الفكر الفلسفي، «ومن هنا يمكن أن نفهم السبب الذي جعل هيدغر يعود إلى الشعر كمجال لقول حقيقة الوجود ذلك لأن الكلمة في معناها الشّاعري تكون دالة على معنى الإنارة، الإنارة التي تخترق السماء وتفتح لنا فضاء يسمح للأشياء تبعا لذلك بالظهور على حقيقتها»،[10] الوجودية لا على حقيقة مقولاتنا عنها.

وتبعا لذلك نجد هيدغر استبدل الأساس الذي انطلقت منه الفلسفة الحديثة "الكوجيتو الديكارتي-أنا أفكر" بالأنا الأنطولوجية القلقة، ذلك لأن الأنا كمقولة قبلية خالصة تسبق الوجود انتهت، وحلّ محلها القلق، ومن خلال القلق تصل الأنا إلى وضع أنطولوجي يسمح لها بإدراك انفتاح الوجود، وهذا سبب إضافي جعل هيدغر يستبدل الشعر بالمقولات السابقة في الكشف عن حقيقة الوجود، ففي «الشّعر يوجد قلق أيضا، وهو قلق لا يرتبط بموضوع معين، قلق مرافق للخلق، القلق من مجابهة شيء لا يحدد صورته بالنسبة له، في قلق الشاعر يوجد الخوف من المقدس؛ وفي الحقيقة عندما يعاني الشاعر من قلق الخلق فإنه بفضله ينقذ ذاته، يفتح دربا بالعودة إلى الذات كإمكانية للوجود الإنساني».[11] ومن هنا ستكون انطلاقتنا في بحث تيمة الوجود في الشعر من خلال العودة إلى الذات وصراعها من أجل

تحقيق إمكانياتها الوجودية، والقلق الذي يصاحب الشاعر في عملية بحثه عن الوجود الأصيل للذات، من خلال تحققها النهائي في الموت كنهاية لكل الإمكانيات الوجودية المتاحة لها.

عناصر ثلاثة يمكن من خلالها الوقوف على أنطولوجيا الذات في الشعر الجزائري المعاصر: التذوت، القلق، والموت.

01/ التــذوت

نقصد بالتذوت هنا مركزية الذات، أو الرّدة من الموضوع/العالم نحو الذات، حيث لا يستدعي الأمر منا كبير ملاحظة ولا عمق اطلاع لنعرف أن الشّعر المعاصر عموما شهد عودة غير مسبوقة إلى الذات، وهذه العودة قد تكون عودة تعبّر عن تجربة وجودية أصيلة في الحياة كما قد تكون مجرد تقليد وتماهٍ مع النسق الشعري المهيمن، ولذلك سنقف على حدود هذه العودة إلى الذات لنكشف عن طبيعتها وعن عمق التجربة الوجودية أو سطحيتها فيها.

يرى الوجوديون أنّ الوجود يكون على ثلاثة أشكال؛ وجود في العالم، ووجود مع الآخرين، ووجود ذاتي. وهذا الأخير، أي الوجود الذاتي هو وحده الوجود الأصيل. ونحن بدورنا سنفتش في الشعر الجزائري المعاصر عن شكل الوجود الذي يحياه الشاعر، هل هو وجود أصيل ذاتي؟ أم هو وجود في العالم؟ أم وجود مع الآخرين؟ ذلك لأن «العلاقة بين الشعر والذات هي علاقة تكامل إذ يصبح الشعر كالوجود يتعلق بالحياة ومكوناتها»،[12] وسنبدأ مع الشاعرة "نهلة كابري"، حيث تقول: [13]

السّياق العام مكتظ ومستعار؛

أعيش-

داخل نسقي-وقد أموت أيضا خارج الموت..

في هذا المقطع تختار الشّاعرة العودة إلى نسقها الخاص، أي وجودها الأصيل، ذلك الوجود الذي تشعر فيه الذات أنها قائمة بنفسها، مسؤولة عن ذاتها، وأنه قد خلي بينها وبين وجودها،[14] بعيدة عن السّياق العام الذي وصفته الشاعرة بوصفين سلبيين؛ "الاكتظاظ" والذي تغيب فيه الهوية الفردية المميزة، و"الاستعارة" حيث تنتفي الأصالة والتميّز، وهو باختصار الوجود الزّائف، الذي تهبط فيه الذات بنفسها إلى مستوى الموضوع، فتميل إلى

الانغماس في المجموع، آملة من وراء ذلك إلى التهرب من حريتها، والتنصل من مسؤوليتها، والتخلص من شعورها بالقلق.[15]

إن عودة الشّاعرة إلى ذاتها هو هروب من واقع أصبح فيه الإنسان المعاصر «يعيش في حالة جماعية زائفة، لأنه قد اتخذ من الآخرين ذريعة للتنازل عن وجوده الخاص، فلم يعد وجوده سوى مجرد انغماس في عالم الجمهور. وهكذا فقد إنسان العصر الحديث إنسانيته وحريته، وصار مجرد موضوع ينطق بلسان الآخرين ويتحرك في مجال ذلك الوسط الاجتماعي الغفل»،[16] ولهذا فالوجود الذي ينشده الشّعر هو وجود أصيل يُحمِّل الذات مسؤولية الاختيار، ويَتبع مسؤولية الاختيار شيء آخر هو الالتزام.

وهنا يمكن أن نناقش نقطة في غاية الأهمية ووثيقة الصلة بموضوعنا في الوقت نفسه، وهي قضية قد تم إساءة فهمها إلى حد بعيد، حيث بات يُعاب على الشِّعر المعاصر عامة بكونه أصبح شعرا ذاتيا غير ملتزم بالقضايا الكبرى، هذا لأن مفهوما ماركسيا قوميا للالتزام هو الذي ساد وهيمن، حيث تم ربطه دوما بالقضايا الوطنية القومية أو الإيديولوجية، في حين نجد الالتزام وهو مبدأ وجودي في الأساس طرحه سارتر في كتاباته، فعل فردي يخص الذّات لا الجماعة، «فالإنسان يلتزم في حياته، وهو في التزامه يرسم صورة ما سيكون عليه وجوده»،[17] ويؤكد البعد الذاتي للالتزام أكثر دفاع سارتر عن نفسه وعن مبدأ الالتزام في كتابات أخرى، حين اتهمه مخالفوه بأن الوجودية بصفة عامة والالتزام بصفة خاصة هو دعوة للانعزال والذاتية والهروب من القضايا الإنسانية المشتركة. فيقول-محاول أن يزيل شبهة "الذاتية السلبية" التي طبعت المذهب الوجودي: «إن قراري هذا ولو أنه نابع من موقفي، أو عاطفتي أو رغبتي، فإنني ألزم به نفسي، وألزم به الإنسانية جمعاء»،[18] ليصبح الالتزام قرارا شخصيا لكنّه يحمل في ثناياه مبدأ العمومية ليشمل الإنسانية جمعاء، ورغم ما قاله سارتر عن الصّفة الجماعية للالتزام إلا أنه في أساسه ومنطلقه فعل فردي واختيار إنساني لإمكانية من إمكانيات الذات الخاصة. وهكذا يمكن أن نصل إلى أنّ الالتزام وإن لم يعد مرتبطا بالقضايا القومية إلا أنه ما زال موجودا، بل لعله عاد إلى أصله الأول، أي الالتزام بحرية الإنسان في اتخاذ قراراته بنفسه وتحمل مسؤوليتها.

لتواصل الشاعرة التزامها الوجودي في اختيار الذات، حيث تصبح هذه الأخيرة -كما يقول هيدغر- "مشروع وجود" وهو «يعني بذلك أننا نعمل دائما على تحقيق إمكانياتنا، فنحن في توتر مستمر نحو المستقبل»،[19] ويتلخص هذا المعنى في قول الشاعرة:

من يرتحل، يضيّع طرقا ويبتكر أخرى.

أما المقيم فبالكاد يجد بابا أو نافذة.[20]

اختيار الذات هو عبور مستمر، هو رحلة لملء النقص الذي هو هوية الإنسان الوجودية، فالإنسان-بخلاف الشيء-"وجوده سابق على ماهيته"،[21] وهذا مبدأ يقرّ به كل الوجوديين. وفي طريقه لاختيار ذاته يتجاوز ذاتا سابقة ويبحث عن ذات لاحقة، إن الإنسان «دائما مشروع غير مكتمل، إنه يتوحد بالنقص، إذن، بمعنى أنه المسافة-الفجوة-التي تفصل بين ما هو واقعه وبين ما سيكونه. إنه مرحلة انتقالية دائمة، سيرورة عبور، مما يفسر لماذا يظل بدون هوية أو ماهية ثابتة».[22]

فليس له هوية سوى الجوع لملء نقصه، كما تعبر الشاعرة ببلاغة عن ذلك: «**الجوع هويتي التي لا ترضخ ولا تنتهي**».[23] ويمكن أن نقلب عبارة الشاعرة لتصبح الهوية هي جوع الإنسان الذي لا ينتهي من أجل تحقيق الذات، فالذات مشروع ناقص يبحث عن كمال لا يأتي إلا مع انتهاء إمكانية كل إمكان، أي مع الموت. وبهذا المعنى نجد الذات الوجودية دوما تسبق الإنسان، وهو يركض للحاق بها، وهذا ما تصوره لنا الشاعرة في صورة جميلة:

الحياة؛

تفرّ بوثبة غزال إلى الجبل..

و أنا أركض-

خلف حواسي-ولا أتوقف.[24]

اختيار الشّاعرة الرّكض خلف الحواس بدل العقل اختيار دقيق، لأن بلوغ الذات هو عملية حسّية أكثر من كونها عقلية، فالعقل هو عالم الماهيات المكتملة، عالم الجواهر، كما كان ثابتا في الفلسفة منذ "مُثلِ أفلاطون" إلى "الكوجيتو الديكارتي" الذي ينطلق من ذات مكتملة أساسية تبدأ بالتفكير العقلي، بخلاف الذات الوجودية التي هي هوية ناقصة يخلقها الفرد باستمرار ويركض خلفها بحواسه، هذه الذات التي أصبحت في الشعر المعاصر مختبر الوجود الشعري:

ذاتي...

مختبري.[25]

02/ القلــق

الحرية في اختيار الذات تقودنا إلى أسلوب آخر من أساليب الوجود الأصيل، ونقصد به تجربة القلق، لأن «القلق هو إمكان الحرية»،[26] كما كان يقول سورين كيركغورد Sorin Kierkegaard، حيث يشعر الإنسان بالخوف من إمكانيات الوجود المتاحة له بما فيها الموت، ولهذا نجد الشاعر الذي اختار الوجود الأصيل للذات يعيش قلقا، وهذا القلق يعتبر تجربة أساسية نفهم من خلالها حقيقة الوجود. والقلق ظاهرة واسعة الانتشار في الشعر المعاصر، رغم أن ماهيتها وأهميتها تغيب عن كثير من الدّارسين الذين ينظرون إليها كظاهرة مرضية أبعدت الشعر عن القضايا الإنسانية الكبرى وحجزته في المشاكل الذاتية للشاعر. إلا أننا وبخلاف هذه الرؤيا سنخرج بالقلق من حيزه النفسي الضيق لننظر إليه كأسلوب من أساليب الوجود الإنساني المقذوف به في العالم، والذي لا يملك من نفسه إلا حريته، وهكذا يصبح «الشاعر هو ذاته معادلا موضوعيا لقلق الحياة وعبثيتها»،[27] كما يقول عمّار مرياش.

وسنأخذ هذا المقطع من قصيدة **"الخريف الذي خلته خيمة"** للشاعر محمد بوطي لنعمّق طرحنا أكثر:[28]

هَذَا مَا عنِيَت.. إِذْ أَقُولُ بِأَنَّنِي وَحْدِي
أشرُد دَاخِلَ اَلنِّسْيَانِ
أَسْأَلُ مِنْ رَأَيْتُ عَلَى اَلرَّصِيفِ
وَلَمْ يَكُنْ يَهْذِي عَلَى وَجْهِ اَلرَّصِيفِ
سِوَى شَبَحٍ لِظِلِّي شَاحِب
هَلْ بَاعَنِي أَهْلِي لِقَافِلَةِ اَلْيَتَامَى عُنْوَة
أُمّ شَرَّدُونِي أَبْتَر
أَدُقّ مِنْ وَجَلٍ عَلَى بَابِ اَلْقِيَامَةِ
دُونَ جَدْوَى
كَأَنَ اَللَّه يَتْرُكُنِي بِبَطْنِ اَلْحُوتِ مَنْفِيًّا بِلَا زَادٍ
فَلَا مَوْت أُغَالِبهُ وَلَا مَطر تَجِن بِهِ اَلْحَيَاةُ.

يصور لنا الشاعر حالة قاسية عن الوحدة والضياع، والمعاناة داخل الغربة الوجودية، داخل النسيان، «فالشاعر يعيش اغترابا متعدّدا، اغترابا مكانيا مرتبطا بانتمائه الجغرافي،

واغترابا فكريا ثقافيا يتولّد من إحساس الشّاعر بانفصاله عن النّسق الفكري السائد في بيئته، واغترابا روحيا لما يحسّه [...] من آلام الوحدة والبعد عن الأحباب وفقدانهم»،[29] وتتعمق هذه الحالة عندما يتخيل نفسه يبحث عمن يحادثه ويسأله فلا يجد إلا شبح لظلِّه، في هذه الحالة عندما يتعاظم قلق الوحدة يتساءل الشاعر عن أقرب الناس إليه، أهله، ويتذكر معاناة الإنسان الوجودية منذ القديم من خلال استحضار قصة نبي الله يوسف، حيث نرى فيها فداحة التخلي، وينحدر الإنسان إلى مستوى الشيئية ليصبح سلعة تباع وتشترى. هذه الصور كلها من أجل التعبير عن الحالة الوجودية التي يجد فيها الشاعر نفسه وحيدا تخلّى عنه أقرب النّاس إليه (العائلة)، فيشعر بالهجر لا يجد خلفه أية دعامة يستند إليها، ولا يرى فوقه أية قوة تعينه على التحكم في مصيره، وتخرجه من "بطن الحوت". فالشاعر هنا من خلال قلق الوحدة والاغتراب يدرك "لا وجود العالم"، و "لا وجود الآخرين"، ويتأكد من ضرورة الارتداد إلى الذّات، وإن كانت هذه الذّات لا تخرج عن كونها مجرد إمكانية عارية للوجود. [30] يقول في هذا الصدد:

هَلْ أَقْضِي..
بَقِيَّة عُمْرِي الْمُأْهُولِ بِالْإِمْعَانِ
أَنْفُخُ فِي رَمَادِ اَلْغَائِبِينَ بِمَحْض غَفْلَتِهِمْ
وَهَلْ أَحْتَاج يَا وَجْه اَلْغَرَابَةِ
أَنْ أَمُوتَ مَضَاضَةً.. أَن أَحْتَمِي بِالْآخَرِين
بِرَغْم أَنْفِي مِنْ سِيَاطِ اَلْآخَرِين. [31]

برغم المعاناة التي يعيشها الشاعر في وحدته، لكنه يخشى من الانحطاط والسقوط، والانحطاط هو أن يترك الإنسان وجوده الذاتي الأصيل وينحدر إلى الوجود مع الموضوعات أو مع الآخرين، أما السّقوط فهو «فرار من القلق، لأن القلق يتهدد وجودنا بأسره، ويعزلنا أمام أنفسنا، بحيث نشعر بهذه العزلة شعورا حادا يختفي معه كل ما يمكن أن يعتمد عليه الإنسان في وجوده»،[32] والشّاعر هنا يخشى أن ينحط أو يسقط في الوجود الزائف مع الآخرين، لأن «الجحيم هو الآخرون»،[33] بتعبير سارتر، أو كما قال هيدغر: «إنّ الهُمْ يمنع شجاعة القلق أمام الموت من البروز»،[34] أي إن الإنسان يهرب من قلقه بالانغماس في العالم، وهذا الهروب هو سقوط في الكينونة المنحطة، هروب من الوحشة والغرابة القلقة التي تغزوه في وجوده الأصيل.

03/ المــوت

إذا كان القلق كما يوضّح هيدغر هو الشّجاعة أمام الموت، فإنه يقودنا إلى الأسلوب الثالث من أساليب الوجود الأصيل، بل يمكن اعتباره حالة الوجود الكامل ونقصد بها الموت. وفي بحثنا عن الموت في الشعر سنبحث عن الموت كأسلوب نهائي لكل إمكانيات الوجود الإنساني باعتبار هذا الأخير «وجودا من أجل الموت». [35] ولقد وجدنا من الشعراء من يعي هذه الحقيقة وعيا عميقا فكتب قصيدة-تتحدث عن كون الموجود البشري هو موجود من أجل موته-بعنوان: **"وثبة الهندباء.. أو: يوم نزول جثتي على الأرض"**.[36] وكشأن كثير من قصائده يضع الشاعر عبد الحاكم بالحيا عتبة أسفل العنوان قبل الشروع في القصيدة، بمثابة المفتاح التأويلي الذي يحمل رؤيا يمكن من خلالها قراءة القصيدة، وقد جاء في هذه العتبة العبارة التالية: **(للموت أشكال شتّى: الحياة أحدها)**، [37] ولا يخفى ما في هذه العبارة من دلالة وجودية على الموت، وهي تقريبا نفس عبارة هيدغر السابقة "الوجود من أجل الموت" وتتفق تماما مع العنوان **"يوم نزول جثتي إلى الأرض"**.

يستهلّ الشاعر قصيدته بحديثه عن ولادته، لكنّه يختار لفظة الموت ليعبر بها عن معنى الولادة، فيقول:

في مثل هذا اليوم.. متُّ-ولم أكن قبلا أمُتّ إلى الحياة-
على يد امرأة، بِوَسْم إلهة.. كانت تخيط لجثّتي قبرا
على جسر الهباء.

يواصل الشاعر تعميق الرؤيا الأصلية التي أسّس لها من خلال العنوان ثم من خلال العتبة قبل الشروع في متن القصيدة، الرؤيا التي تتلخص في الفكرة الوجودية التي ترى أن الوجود البشري هو وجود نحو الموت، والشاعر هنا لم يهرب من الموت بالانغماس في العالم، لأن الإنسان كما يرى هيدغر عادة «يُتوفى على نحو واقعاني، طالما هو يوجد، ولكن بادئ الأمر وأغلب الأمر على سبيل الانحطاط. فالوجود الواقعاني ليس هو فقط على العموم ودونما مبالاة قدرة على الكينونة في العالم ملقى بها، بل هو أيضا منغمس بعد في العالم الذي يشغله»،[38] وهذا سبيل الوجود الزائف، أما الوجود الأصيل الذي يحياه الشاعر فهو وجود من أجل الموت، هو وجود واعٍ بحقيقة المستقبل-الموت.

"لغزٌ هو الميلاد"؟[39] **أم موت يجدّد في دمانا لعبة**
الرّوليت؟ ماذا بعدُ؟ نقفز بين هاوية وأخرى*..

نستقلّ مجرّة، فنغلّ في ثقب سوادٍ.. لا أمام ولا وراء!
في مثل هذا اليوم.. جئت.. ولم تشأ لي حصّة
الفقراء من قدري المطرّز بالأماني المستحيلة
والنّحيلة.. أن أصيح وأن أصير.. كما أشاء
وطفقت أصرخ.. كي أصون أقلّ ما لي من حقوق:
في المحال من الكلام، وفي الحرام من النضال،
وفي الشهي من الغواية والغناء.[40]

يشير الشاعر إلى أن الميلاد لغز، لأنه لا يعدو أن يكون شكلا آخر من أشكال الموت، حيث يعتبر الوجود الإنساني جسرا بين موتين، وبهذا يصبح الوجود عبور الذات. وفي رحلة العبور تبحث الذات عن سد ثغرة الوجود الذي قذفت فيه، لكن دوما هناك معيقات تقف بين الذات وبين تحقيق وجودها الأصيل يأتي الآخرون-الغير على رأس هذه المعيقات **"ولم تشأ لي حصّة الفقراء من قدري... أن أصيح وأن أصير وأن أطير كما أشاء"**، لكن الشاعر هنا لا يفرط في وجوده الأصيل وفي حقه في الاختيار لذلك يكافح من أجل حقه في الحياة **"وطفقت أصرخ.. كي أصون أقل ما لي من حقوق: في المحال من الكلام وفي الحرام من النضال"**.

فما دام الموت وسيلة من وسائل العودة إلى الذات وإدراك فرديتها الخاصة، وما دام ليس لأحد أن يموت عني فلا يمكن أن أسمح للآخرين أن يستولوا على وجودي من خلال اختيارهم لما يمكن أن أكونه.

وهنا نصل إلى آخر محطة من محطات الوجود الإنساني، وهي الإمكانية التي تنتهي معها كل إمكانية أخرى،[41] ولهذا يعتبر الموت أعلى إمكانية من إمكانيات الوجود البشري، لأن الوجود البشري هو هوية ناقصة باستمرار، هو وجود نحو المستقبل يسعى لتحقيق إمكانياته البشرية، ولا ينتهي هذا الجوع البشري إلى الكمال إلّا بالموت، وهذا ما تعبّر عنه الشاعرة نهلة كابري بعبارة بليغة:[42]

في غمرات الموت، ينتهي ما كان ناقصا على الدوام.

ويختار **ميلود خيزار** النسيان باعتباره شكلا من أشكال الموت، هو موت الذاكرة، والذاكرة هي الإنسان بما هو تشكيلة تاريخية يتحقق إنجازها النهائي بفعل الموت، ولذلك نجد الشاعر على وعي عميق بالنسيان كالحالة لأنطولوجيا الذات الأصيلة الناشزة عن عالم

الجمهور وذاكرته المزيفة. فالنسيان استباق تمثيلي للموت، وكأن الشاعر يريد أن يخبر حقيقة الموت عيانا في فعل النسيان. وهذا ما يعبر عنه بقوله:

تعني القصيدة لي، تمامك... واحتمال الله في مرآة عينيك الملغّمتين بالإيقاع... تعني لي تخوم الصّمت... **حيث الموت سيّد والعزاء نبيذ أغنية تجدّد حكمة النّسيان... ننسى، عادة، لتصير حادثة الحياة جديرة بوجودنا العبثيِّ... ننسى كيف دسّت بذرة المعنى رؤاها في وجيب النّص**... كيف نجا كتاب الملح من خبز المقدّس... (آه، ماذا غير وعد الجنّة الخضراء للبؤساء) ... ماذا أدرك الأعمى من الأنثى سوى أشلاء قاصرة جاوز يأسها الخمسين؟ **ننسى كيف يحيا الموت في أنقاضنا... لا شيء مثل الموت حيٌّ بيننا**... تعني القصيدة بعض ما أعني... ويعني لي الكثير.[43]

يربط الشاعر هنا ربطا مباشرا بين الموت والنّسيان، لكنه يقلب المعادلة ليصبح النسيان هو الأصل، هو الحكمة، وما الموت إلا وسيلة لبلوغ غاية الإنسان وهي النسيان، لأنه هو الوجود الأصيل الذي تبحث عنه الذات الشاعرة، وهو وإن كان وجودا أصيلا إلا أنه في جوهره عبثي، وهنا نعيش هذا القلق والارتباك الوجودي مع الشاعر حيث يحدث انزياح رهيب على مستوى المعاني والقيم، فليست الحياة هي الأصل بل الموت، كما تفقد الذاكرة مركزيتها لصالح النسيان، والوجود العبثي بدل الوجود الجاد، وهنا يضع الشاعر الذات في أنطولوجيا مغايرة تنهار فيها القيم المعتادة ويرتج فيها المعنى أمام الحقيقة المروعة للموت، حيث **"لا شيء مثل الموت حي بيننا"**. لذلك يصعب علينا القبض على هوية الكتابة الشعرية هنا، ويصعب معها تحديد ملامح الذات، فهي تأخذنا جيئة وذهابا بين الوجود والعدم، ونعيش في منطقة "المابين"، لأن الذات في رحلتها عن الوجود الأصيل تكتشف أنه هو النسيان الذي لا يتحقق إلا بفعل الموت/العدم.

ثم يعمّق الشاعر كينونة النسيان بما هي أمنية الذّات بقوله:[44]

وَدِدْتُ لَوْ أُنْسَى كَمَا يُنْسَى حُنَيْنٌ غَامِضٌ
لِلْمَوْتِ فِي أَحْضَانِ أُغْنِيَةٍ عَن اَلْمَنْفَى، كَمَا
تَنْسَى اَلْقَصِيدَةُ ضِيقَهَا فِي فُسْحَةِ اَلتَّأْوِيلِ،
مَا اَلنِّسْيَانُ؟ مَوْتٌ مَا بِطَاقَة صَرْخَةِ اَلْمِيلَادِ،
طَوقُ نَجَاتنَا اَلْعَدَمِيُّ مِنْ دَوَّامَةِ اَلْجَدْوَى،
وَصَايَا اَلنَّارِ فِي كُتُبِ اَلرَّمَادِ، وسَادَةُ اَلْحُلْمِ
اَلنَّبِيلِ بِفُرْصَةِ السَّفَرِ الْبَعِيدِ.

يعمّق الشاعر كينونة النسيان من خلال هذه الصورة الهجينة والمنسجمة في الوقت نفسه مع السياق العام للقصيدة، ومع السياق الأنطولوجي، فهو دوما يربط النسيان بالموت، ومن أجل تعميق ذلك يسوق المعاني المنتمية للحقل الدلالي نفسه (الموت، المنفى، حنين غامض) كل هذا يمهّد به للولوج إلى عالم النسيان بما هو أنطولوجيا الذّات الشاعرة، التي تسعى للتأسيس لأنطولوجيا أصيلة في العالم **"ما النسيان؟"** السؤال هنا في حد ذاته سؤال أصيل، وبخلاف الشائع فإن الأسئلة الأصيلة هي التي تعكس الوجود الحقيقي المنتبه وليس الأجوبة، عندما نسأل الأسئلة الصحيحة لا بد من أن نجد لها الأجوبة الصحيحة يوما ما، وهنا يطرح الشّاعر تساؤله عن ماهية النسيان، "النسيان بما هو أنطولوجيا منسية"، لنقف أمام مفارقة، فالنسيان بحد ذاته منسي، حتى يأتي الشّعر ليوقفنا أمامه كأننا نراه لأوّل مرّة، أو نتذكره لأوّل مرّة. وما يقدّمه لنا الشاعر عن النسيان لا يمنحنا راحة الوضوح الدّلالي بقدر ما يدخلنا في دوامة من المعاني القلقة، وهذا يعكس أنطولوجيا غير مستقرة تفتش لها عن مكان في أعماق لم تُكتشف بعد، وتتجلى مفارقات النسيان في المعاني التي يجلبها معه (موت بصرخة الميلاد/ طوق نجاة عدمي/ دوّامة الجدوى/ وصايا النار في كتب الرماد...) كلها معاني تقوم على بنية المفارقة والتضاد، ولكنه تضاد على المستوى السطحي فقط، أما على المستوى الأنطولوجي فهو منسجم، ذلك أن الكينونة الأصيلة والوجود المكتمل يتحقق بفعل الموت، والموت هو صورة العدم، لذلك يعتبر الشاعر هذا الأخير طوق نجاة من الحياة الزائفة، فالعدم هو الحقيقة المتبقية لدى الذات، ويختمها بصورة فنية جميلة تؤكد ما يذهب إليه، فمهما اشتعلت النار وتوهجت فإنّ حقيقتها الأخيرة هي الرماد.

04/ خاتمة

في هذا الختام نرى بأن الأنا/الذات كمقولة قبلية خالصة تسبق الوجود انتهت، وحلّ محلها القلق، ومن خلال القلق تصل الأنا إلى وضع أنطولوجي يسمح لها بإدراك انفتاح الوجود، وهذا القلق صاحب الشاعر في عملية بحثه عن الوجود الأصيل للذات، من خلال تحققها النهائي في الموت كنهاية لكل الإمكانيات الوجودية المتاحة لها، وهنا حل الشّعر محلّ المقولات الفلسفية السابقة في الكشف عن حقيقة الوجود، ومن خلال ذلك نفهم تلك العودة في الشعر الجزائري المعاصر إلى الذات لتحقيق إمكاناتها الوجودية.

كما وقفنا على ثلاثة عناصر لأنطولوجيا الذات في الشعر الجزائري المعاصر:

أ/ **التـذوت:** هو تلك العودة غير مسبوقة إلى الذات في الشّعر الجزائري المعاصر، وهذا ما جسدته الشّاعرة نهلة كابري بالعودة إلى نسقها الخاص، أي وجودها الأصيل، ذلك الوجود الذي تشعر فيه الذات أنها قائمة بنفسها، مسؤولة عن ذاتها، وأنه قد خلي بينها وبين وجودها، في رحلة لملء النقص الذي هو هوية الإنسان الوجودية، رحلة لاختيار الذات الخاصة بالشاعر، وليست ذاتا معدة بشكل مسبق من طرف المجتمع قبل ولادته.

ب/ **القلــق:** رأينا أن عملية اختيار الذات الأصيلة صاحبها قلق، وهو عبارة عن شعور بالخوف من إمكانيات الوجود المتاحة للذات بما فيها الموت، ولهذا وجدنا الشاعر الذي اختار الوجود الأصيل للذات يعيش قلقا، وهذا القلق يعتبر تجربة أساسية نفهم من خلالها حقيقة الوجود. والقلق ظاهرة واسعة الانتشار في الشعر المعاصر، رغم أن ماهيتها وأهميتها تغيب عن كثير من الدّارسين الذين ينظرون إليها كظاهرة مرضية أبعدت الشعر عن القضايا الإنسانية الكبرى وحجزته في المشاكل الذاتية للشاعر. إلا أننا وبخلاف هذه الرؤيا خرجنا بالقلق من حيزه النفسي الضيق ونظرنا إليه كأسلوب من أساليب الوجود الإنساني المقذوف به في العالم، والذي لا يملك من نفسه إلا حريته.

ج/ **المــوت:** الأسلوب الثالث من أساليب الوجود الأصيل، والذي يمكن اعتباره حالة الوجود الكامل هو الموت. وفي بحثنا عن الموت في الشعر ركزنا على الموت كأسلوب نهائي لكل إمكانيات الوجود الإنساني باعتبار هذا الأخير "وجودا من أجل الموت". ولقد وجدنا من الشعراء من يعي هذه الحقيقة وعيا عميقا فكتب قصيدة-تتحدث عن كون الموجود البشري هو موجود من أجل موته-بعنوان: **"وثبة الهندباء.. أو: يوم نزول جثتي على الأرض" لعبد الحاكم بالحيا**

قائمة المصادر والمراجع:

[1] إبراهيم أحمد: أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2008، ط1.

[2] إمام عبد الفتاح إمام: كيركغورد رائد الوجودية، ج2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ط؟، 1986.

[3] جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، مطبعة الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط1، 1964.

[4] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ط؟

[5] زكريا إبراهيم: "الوجود والزمان لهيدغر"، مجلة تراث الإنسانية، العدد 7، يوليو 1965، مصر.

[6] سارتر: الأبواب المقفلة، تر: هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط؟، ب ت.

[7] صليحة بوعلي، وعمرو عيلان يوسف الأطرش: "صورة الاغتراب الرّوحي في الشعر الرومانتيكي عند الشاعرين: ألفونس دولامارتين Alphonse de Lamartine ولمبارك جلواح"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، تبسة، مجلد 15، عدد 03.

[8] عادل ظاهر: الشعر والوجود، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 2000.

[9] عبد الحاكم بالحيا: حلاج النهايات، ميم للنشر، الجزائر، 2021، ط1.

[10] عبد القادر العشابي: "حركة الشعر الحر وانهيار الأنموذج"، التعليمية المجلد: 12 العدد: 01 ماي 2022، سيدي بلعباس.

[11] محمد بوطي: تلويحة لموت آخر، دار خيال، برج بوعريريج-الجزائر، ط1، 2021.

[12] محمد كرد: الشعر والوجود عند هيدغر، رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران، 2012/2011.

[13] محمود درويش: أرى ما أريد، دار العودة، بيروت، ط3، 1993.

[14] مصطفى دحية: بلاغات الماء،

[15] ميلود خيزار: قداس زهرة الملح، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018.

[16] نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

[17] نهلة كابري: أقرا للريح أكتب لي، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018، ط1.

[18] نوارة لحرش: رعاة المعنى، حوارات مع شعراء، ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2019.

[19] مارتن هيدغر: الكينونة والزمان. ترجمة، فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط1، 2012.

الهوامش

---

* المؤلف المرسل.

[2] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ط؟، ص558

[3] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص560

[4] المرجع نفسه، ص565

[5] المرجع نفسه، ص559

* - يحرر هيدغر الحقيقة من المفهوم المتداول لها بمعنى المطابقة. لتدل على الكشف والظهور واللاتحجب، فيما يدل خلاف الحقيقة أي الكذب على الحجب والإخفاء. وهكذا لا تصبح تتحدد اللغة بموافقتها للمقولات المنطقية، بل بما تكشفه من الوجود المحتجب. ينظر: مارتن هيدغر: الكينونة والزمان. ترجمة، فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط1، 2012، ص96.

[6] إبراهيم أحمد: أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2008، ط1، ص64

[7] ينظر: نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص32

[8] محمد كرد: الشعر والوجود عند هيدغر، رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران، 2012/2011، ص101

[9] محمد كرد: المرجع نفسه، ص103

[10] ينظر: نفسه، ص نفسها

[11] المرجع نفسه، ص100

[12] عبد القادر العشابي: "حركة الشعر الحر وانهيار الأنموذج"، التعليمية المجلد: 12 العدد: 01 ماي 2022، سيدي بلعباس، ص420

[13] نهلة كابري: أقرا للريح أكتب لي، أقرا للريح أكتب لي، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018، ط1، ص104

[14] ينظر: زكريا إبراهيم: "الوجود والزمان لهيدغر"، مجلة تراث الإنسانية، العدد 7، يوليو 1965، مصر، ص532

[15] ينظر: زكريا إبراهيم، المرجع نفسه، ص نفسها

[16] زكريا إبراهيم: المرجع السابق، ص531

[17] جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، مطبعة الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط1، 1964، ص40

[18] جان بول سارتر: المرجع نفسه، ص18

[19] زكريا إبراهيم: الوجود والزمان لهيدغر، ص535

[20] نهلة كابري: المصدر نفسه، ص79

[21] ينظر: سارتر، المرجع السابق، ص11

[22] عادل ظاهر: الشعر والوجود، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 2000، ص162

[23] نهلة كابري: المصدر السابق، ص91

[24] المصدر نفسه، ص101

[25] مصطفى دحية: بلاغات الماء، ص35

[26] إمام عبد الفتاح إمام: كيركغورد رائد الوجودية، ج2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ط؟، 1986، ص343

[27] نوارة لحرش: رعاة المعنى، حوارات مع شعراء، ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2019، ص56

[28] محمد بوطي: تلويحة لموت آخر، (م س)، ص13

[29] صليحة بوعلي، وعمرو عيلان يوسف الأطرش: "صورة الاغتراب الرّوحي في الشعر الرومانتيكي عند الشاعرين: ألفونس دولامارتين Alphonse de Lamartine ولمبارك جلواح"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، تبسة، مجلد 15، عدد 03، ص213

[30] ينظر: زكريا إبراهيم: الوجود والزمان لهيدغر، ص533

[31] محمد بوطي: تلويحة لموت آخر، دار خيال، برج بوعريريج-الجزائر، ط1، 2021، ص16

[32] سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ص35

[33] سارتر: الأبواب المقفلة، تر: هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط؟، ب ت، ص97

[34] مارتن هيدغر: الكينونة والزمان. ترجمة، فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط1، 2012، ص456

[35] زكريا إبراهيم: المرجع السابق، ص535

[36] عبد الحاكم بالحيا: حلاج النهايات، ميم للنشر، الجزائر، 2021، ط1، ص50

[37] المرجع نفسه، ص نفسها

[38] هيدغر: الوجود والزمان، ص453

[39] العبارة المُؤشّر عليها في النصّ لـ محمود درويش: أرى ما أريد، دار العودة، بيروت، ط3، 1993، ص28

[*]-في هذه الجملة تناص مع بيت أبي العلاء المعري:

حياة كجسر بين موتين أوّل وثانٍ وفقد الشّخص أن يُعبَرَ الجسرُ

ينظر: أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، مكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ط؟، 1924، ص299.

[40] عبد الحاكم بالحيا: المصدر السابق، ص51

[41] ينظر: زكريا إبراهيم: الوجود والزمان لهيدغر، ص535

[42] نهلة كابري: أقرأ للريح أكتب لي، ص87

[43] ميلود خيزار: قداس زهرة الملح، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018، ص8

[44] المصدر نفسه، ص10